

الألوان... في الفصحى والدراسات العلمية واللغوية

محمد بهجة الأثري

قالوا : «العالمُ شعر».

وأقول : إنَّه^(١) الألوانُ رَوْنُهُ وفنونه وأُخْيَلَتُهُ، وهنَّ رُوءَاءُ وفُتُونٌ وسِحْر ! لقد أبدع الله الخلاق العظيم، جَلَّ وعلا، هذا الكون العجيب باهر الآيات ورائع الصُّور، ووشَّح عوالمه العلوية والسُّفلية بالبهجة والنضارة، وألَّفَى على كُلِّ ما خَلَق منها أُرديَّة زواهي زائِناتٍ من الألوان المختلفة، ومازج هذه الألوان المختلفة بالألوان والأضواء، فزادت أزيائُها الخلابَةُ ألْقاً ووهجاً، وأحدثت جملتها، وقد تحابَّت وتعاشقت وتمازجت، هذه المشاهد الروائع الفوائِن : تأسير النَّواظر، وتحلب الألباب، يَقِف النَّاظر المتفكِّر أمام كُلِّ مشهد منها مشدوهاً ومسحوراً، لا يملك من اندهاشه وتعجبه إلا أن يهتف : «سُبْحَانَ اللَّهِ الْخَلَّاقِ الْعَظِيمِ» !

ومن اندماج الإنسان المتأمل المتفكِّر، بروحه وفكره، في معاني هذا «الوجود» وسحره - انبثق هذا التفرُّس والاستغراق في الملاحظة والدرس والتعليل والاعتبار، ومن ثَمَّ أخذت تتكوَّن العلوم المختلفة والمتنوعة، رويداً رويداً، عند أجناس البشر، وثرَّجَل في لغاتهم الأسماء والأوصاف، وتُسْتَحْدث التراكيب يعبرون بها عن المفاهيم والمُدْرَكَات الحسِّيَّة والمعنويَّة في كُلِّ ماتنَّوَحُّ حوله الأنظار وتتناوله الأفكار بالتأمُّل والدرس. ومن جملة ذلك تأتي أشياء عند كل أمة على قدر انشدادها إلى ظواهر هذه الطَّبيعة، واستغراق أفكارها فيها، واستيعابها لها تفرُّساً واستبصاراً ودرساً، ثم استنباطاً وتوليداً وتأصيلاً وتفرُّيعاً، ثم إبداعاً.

ولا نزاع في أن الأمة العربيَّة، العريقة بوجودها الضَّارب في أعماق الأزَل، قد كان لها الحظ الأوفر والأوفى من الانشداد إلى عوالم الطَّبيعة، والتفكِّر في خلقها

وروائع آياتها وصورها وما عليها من مخايل الحسن وبهاء الألوان، لخاصيّات توافرت لها، وتسنّى لها بها الحظ العظيم.

من هذه الخاصيّات، هذه الطّبيعة التي تحتضنهم أكنافها، وقد كساها الله تعالى الجمال، وخلع عليها أودية الصفاء : صفاء الآفاق والأجواء والصّخو الأشبه بالدائم، تأتلق الأنوار والأضواء على مطالعها من التّيرّين المتعاقبين والنجوم الثواقب والكواكب الزّواهر، ففتترق بصر الإنسان أنّى سار وتلفت ونظر، فتشده إليها شداً، مأخوذاً ومسحوراً أبداً، ومنها هذا الذي رزقوه من الذكاء الثاقب والفكر النافذ والفِراسة اللَّمّاحة في عقولهم المستبصرة المتطلّعة أبداً إلى الملاحظة لِتعرّف الأشياء، فلا تفتأ تُعبر كلّ شيء تبصره أو تحسّه اهتمامها البالغ، لا تدع منه شاذة ولا فاذة... ثم خاصيّة هذا البيان، وضلاعة المقدرة على ارتجال الأسماء للأشياء وتحديد أوصافها ونعوتها بجلاء وإحاطة، لِتعرّف وتُسقّر في الأذهان وتتداولها الألسنة.

ومن جُماع هذه «الخاصيّات» كان في العربيّة الفصحى هذا الفيض الغزير الثّر من الكَلِم والأسماء الخاصّة النَّاصّة لكلّ ما تعرّفه العرب من ألوان الحياة على تعاقب الأيام، وقد نهضت قواطع البيّنات شواهد لها سوافر الوجوه، مشرقات القسّمات، نواصع بياض الغرر، في هذه العلوم اللسانية والإنسانية والتطبيقية التي ابتكرها العرب في الإسلام، وجاوزوا بما أصّلوه وفرّغوه ثلاث مئة عِلْم وفنّ، ألفوا فيها من روائع المصنّفات آلاف آلاف ينوء بإحصائها العدّ والحصر، وما برحوا يواصلون في الفصحى البحث والتدوين، وهي تجود على ما يستحدثونه بالمادّة الفيّاضة الثّرة قويّة غير ضعيفة وانية، وسخية مذرّارة غير بخيلة ضيّنة.

حقيقة مُسلّمة تُشخّص للعيان في كلّ ما ينظره الباحث ويلتقيه في هذه الآثار الرّوائع كينونةً ونفوداً وتطبيقاً واقعياً يشهد بالحق وينطق بالصدق، لا تزيد في شيء منه، ولا ادعاء، وليس التنويه به بِمُنطليق من مُناغة العاطفة والهوى.

وموضوع هذا البحث، وهو جزء من جوانب هذا الشأن العظيم الذي اضطلعت الفصحى به على توالي الأحقاب، يصلح أن يكون مثلاً لغيره تبرز في عرضه ضلاعة هذا اللسان العربي المبين وثورؤه العظيم ألا وهو «الألوان».

هذه الظاهرة الكونيّة، التي تزين وجوه عوالم الطّبيعة، وتنظم «الوجود» وكائناته جمعاء، من : إنسان ناطق تعددت أجناسه، واختلفت ألوانه في بدنه، وشعره ومُحيّاه، وعينيّه، وأهدابه، وشفّتيّه ؛ ومن جمادٍ صامتٍ جندلٍ ورُخامٍ وثراب، وكلّ له لون ؛ ومن حيوان سارح على الأرض، أو سانح في السّماء، أو سابح في الماء، وما أكثر أجناسه

وأنواعه واختلاف ألوانه ؟ ومن شجر ونبات وغراس وثمر، تكسوها الخضرة الناضرة وهي درجات متعدّدة ومختلفات، كأمثالها من الألوان الأخرى في هذه التعدّدية والاختلاف بلّه ما يُضاهيها به من الألوان «أصحاب الفنون» فيما يرسمون ويلوّنون من الصّور والهيآت، أو «أرباب الصناعات» فيما ينسجون ويرقّشونه من الثياب والرّياش، وما يصنعونه من ضروب الماعون والمرافق، ويفتّشون في تزيينها وتلوينها بضروب من الألوان يركّبونها صناعة، لِتَحْسُنَ بها في النّظر، وتجذب النفوس، وتأخذها بسحرها، فتنفّق في التجارات.

هذه الظّاهرة اللّونية الكونية العجيبة، كانت مناط أفكار علماء العرب، وكان بحثها الشغل الشاغل لهم، فأولّوها في جملة ما بحثوه من ظواهر الكون وشؤون الحياة عنايةً بالغة، وكانت لها مواقع جليلة في دراسات الفلاسفة والمتكلمين والطّباة وعلماء النّفس، كما كان لها مثل هذه المواقع الجليلة في دواوين اللغة، شغلت منها أحياناً فِساحاً، إذ أوسعوها بحثاً وتفسيراً وتعليلاً، وبسطاً لأنواع الألوان، وتأصيلاً لأشياء منها، وتفرّيعاً لأشياء أُخرى على ما بدا لهم من الرّأي.

فما كان من شأن هذه الفصحى في مواكبة هذه الدّراسات والبحوث ؟ هل وافت الباحثين والمؤلّفين بالمادّة الوافرة من الألفاظ اللّونية، يقضون بها أوطارهم فيما يبحثونه، ويمتدّون بها فيما يكتبونه ويخصّصونه في سهولة ويُسر ؟

الجواب : نَعَمْ، ونَعَمْ عَيْن.

إنّ هذه الفصحى قد واكبت هذه الدّراسات والبحوث بقوة بالغة، وأوفت على الغاية، بل أربت على الغاية، وكانت أجودّ جُوداً من السّماء⁽²⁾ يصبو مِذراراً على جدوب الأرض فيمرّعها وتأخذ به زُخرفها صنوفاً وأفانينَ وألواناً، كما هو شأنها أبداً في كلّ ما تعرّض له أو يعرض لها من شيء.

لقد أحصيتُ في الفصحى بضع مئتين من الألفاظ اللّونية، شملت «الوجود» ومختلف كائناته، وكان لها حضور تامّ في أشعار الشعراء القُدّامى، وأشياء كثير ظهرت في دراسات الأدباء والمؤلّفين، وغابت منها عنهم أشياء أكثر أربت على حاجاتهم حين تقلّصت القدرات وضعفت عن استيعابها عند انخسار المدّ العلميّ وجزّره، فظلت حبيسةً في مُبدّعات القدماء، وارتهنتها معاجم اللغة الكبار : معاجم الألفاظ، ومعاجم المعاني أو معاجم الموضوعات، مبسّطة الشروح وموثّقة بالشواهد، وقد تناثرت في مطاويها تناثر الكواكب والنجوم في آفاق السّماء، وهي تؤلّف معجماً. بالغ الشأن يليّ حاجات الباحثين والمؤلّفين في الدّراسات اللّونية، وترفد المسترفدين بما يحتاجونه من أنواعها.

وأحسب أن هذه «الخاصية» من الكثرة، ومن التخصيص الذي يفصل لوناً من لون، ويفرد نوعه وصفته ودرجته اللونية، حالة متميزة انفردت بها الفصحى من بين لغات البشر. ويظهر صدق هذا التصور واضحاً وجلياً بمقارنتها بأشهر لغة عالمية عُرفت في عصرنا العتيق، وهي هذه اللغة الإنكليزية.

فإننا إذا تتبعنا الألفاظ اللونية في مواردها واستعمالاتها، نجدها قليلة جداً بإزاء الألفاظ اللونية في الفصحى، لا تنهض «مفاردها» بالفصل التام بين الألوان، وتميز درجاتها وما بينها من الفروق الدقيقة، فالتجيء عند إرادة ذلك وتسميته إلى التركيب : تركيب اسم اللون من لفظين أحياناً، ومن جُمْلٍ تتألف من عدة ألفاظ أحياناً أخرى تخرج عن حدّ تسمية اللون إلى تعريفه. والتسمية إنما تتحدد وتعيّن بالإفراد، وليس بالتراكيب والجُمْل. وقد تحقّق الشأن الأوّل في الفصحى من غير شذوذ، وانتفى وجود نظيره في هذه اللغة العالمية، فاضطرّ أهلها إلى ركوب متون التراكيب والجمل، وإلى الأرقام أيضاً بسبب الخصاصة والفقر، والحاجات المتزايدة إلى التعبير عن حالات تستجدّ في صناعة الألوان.

والأمثلة لهذا الواقع : واقع الفصحى ممّا عبّرت عنه بلفظة واحدة، وواقع هذه اللغة العالمية ممّا عبّرت عنه بلفظتين أو بجملة.

ومن النوع المُعبّر عنه في الفصحى بلفظة واحدة، وفي الإنكليزية بلفظتين، على سبيل التمثيل لا الحصر :

snow white	1 - أصهب
dim colour	2 - أدغم
ash gray	3 - أربد
bare patch	4 - بهق
bright red	5 - زاهر
green dark	6 - أخوى
grunish white	7 - أقمر
dull colour	8 - كمد
dark colour	9 - أدكن
white bull	10 - لهق، لهاق
deep red	11 - مُدَمَّى
very dark	12 - دامس

shining white	13 - نَعَج
ash grey	14 - أَوْرَق
shining white	15 - شَرَبَة
white black	16 - أَبْرُق
opaque colour	17 - أَكْحَلُ
raddish and yellowish	18 - زُرْقَة
chestnut brown	19 - أَحْلَسُ
dark brown (blackish colour)	20 - أَسْعُرُ

ومن التّوع المُعَبَّر عنه في الفصحى بلفظة واحدة، وفي الإنكليزية بجملة، على سبيل التمثيل أيضاً لا الحصر :

red shaded with white	1 - أَشْكَلُ
dirty colour approaching	2 - أَطْلَسُ
dark blue blanded with red	3 - أَشْهَلُ
clear black and white	4 - حَوْرُ
the colour of crow	5 - غَرِيبُ
blackish dusty dark	6 - قَاتِمُ
reddish - brown blended with white and black	7 - أَحْسَبُ
coloured with black and white	8 - أَخْرَجُ
bicolour of green and black or gray and green	9 - أَخْطَبُ
having a body speckled with molse	10 - أَخِيلُ
red blended with yellow	11 - رَادِنِي
ash gray or having reddish spots	12 - أَرْبَدُ
two different colours	13 - شَرِيحَانِ
black and large eye	14 - أَدْعَجُ
streaked with white and black	15 - أَرْقَمُ
grey on a light red back groud	16 - أَصْحَرُ
which has a white spot on its brow (horse)	17 - أَعْرُ
grey, white blended with black	18 - أَمْلَحُ
very white bread	19 - حَوَّارِي

with dark red lips

20 - أَلْعَسُ

وغير هذا وذاك كثير يطول سرده، وبما ذكرته الكفاية للتدليل على خصوصية الفصحى وتمييزها بالثراء والاتساع.

هذا، وقد برز الاهتمام بدرس هذه الظاهرة اللونية الكونية، من قديم الدهر، عند العلماء الباحثين المتفكرين في عالم الخلق والإيجاد، وظلت على تعاقب الأحقاب إلى يوم الناس هذا، وستظل أبداً، موضع أنظار الخالفين أمة بعد أمة، لا يفتؤون يؤلونها بحثاً ويوسعونها درساً وتعليلاً.

وبدأً وجدت الأرائل قد اختلفوا في «حقيقة اللون» اختلافاً كانوا فيه على طرفي النقيض، فأثبتها ناس، ونفاها آخرون.

المثبتون ذهبوا إلى أن أصل اللون اثنان : البياض والسود ومنهما تتولد جميع الألوان.

وقال الثقات : ليس للون حقيقة، وإنما يُتَخَيَّلُ «البياض» للأجزاء الشفافة المتصغرة جداً، كما في زبد الماء، وكما في الثلج، وكما في البلور والزجاج، وكما في موضع الشق من الزجاج. و«السود» يُتَخَيَّلُ بضد ذلك... إلى أقوال غيرها للآخرين منهم، ذكرها ابن سينا في «كتاب الشفاء»، وتداولها علماء الكلام الإسلاميون في كتب العقائد وناقشوها، أمثال «العصدي» في «كتاب المواقف»، و«السيد الشريف الجرجاني» في شرحه.

وهؤلاء وأولئك، هم اليونانيون، ولعل «كتاب سر الخليفة وصنعة الطبيعة - كتاب العلل» لـ «بليزوس الحكيم»، كان من أوائل المؤلفات اليونانية، التي ترجمها علماء العرب في عصر الخليفة العباسي المأمون، ووجدوا فيه أقوال اليونانيين في الألوان بين مثبتين لها ونفاة. وقد قال «بليزوس الحكيم» في كتابه هذا تحت عنوان «القول في الألوان» :

«اللون هو جنس الأجناس، وإنما سُمِّيَ «جنس الأجناس» لأنه مُقسَّم للبياض والسود والحمرة والصفرة والخضرة والأصمانجوني [أي الزرقة التي تشاهد في السماء]. فأما القديم من الألوان، فإنما هو اثنان : البياض والسود، وهما جنسان قديماً، ومنهما تتركب الحمرة والصفرة والخضرة ولون السماء. ومن هذه الألوان تتركب جميع الألوان. وذلك أنه إذا اجتمع اللون الأبيض مع اللون الأسود، فغلب الأسود الأبيض بجزء، كان هناك لون أصفر. وإذا تكاثف الأبيض على الأسود، وتداخل الأسود في الأبيض، كان هناك لون أحمر مشقوق. وإذا غلب السود البياض، كان هنالك لون اسمانجوني...» إلى آخر ما حكى في هذا الشأن.

وسرعان ما انعكس هذا الذي تحدّث به «بلينوس الحكيم» في كتابه، في دراسات علماء العرب المسلمين لأوّل ظهور ترجمته من اليونانية إلى العربية في جملة ما ترجم في عصر الخليفة العباسي المأمون من علوم اليونانيين، إذ كان باعث المسلمين على التفقه والتوسع في العلوم هذا القرآن العظيم وهو يحضّ المسلمين المؤمنين أولي الأبواب على اقتباس المعارف الإنسانية من أيّ وعاء خرجت، وعلى التفكير فيما خلق في هذا الكون العظيم من آيات خوارق في السّماء والأرض تدلّ على وحدانيته، جلّ وعلا وتوحي الإيمان به خالقاً مبدعاً فرداً لا شريك له...

ولعلّ أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، باقعة المُصنّفين العرب الأوّلين في مختلف العلوم والآداب والفنون، وهو من أهل عصر المأمون - كان أسبق من انعكست هذه العلوم الدخيلة فيما ألف وصنّف، ومنها موضوع الألوان، إذ وجدته قد حكى في «كتاب الحيوان» في جملة ما تحدّث به - في الأضواء والألوان وألوان النيران استطراداً كعادته الغالبة عليه في تصانيفه - ما أورده «بلينوس الحكيم» في كتابه هذا. قال، ولم يُسمّه ولم يذكر كتابه :

«وقد جعل بعض من يقول بالأجسام هذا المذهب دليلاً على أنّ الألوان كلّها إنّما هي من السّواد والبياض، وإنّما يختلفان على قدر المزاج. وزعموا أنّ اللون في الحقيقة إنّما هو البياض والسّواد، وحكموا في المقالة الأولى بالقوّة للسّواد على البياض، إذ كانت الألوان كلّها كلّما اشتدّت قُرِبَتْ من السّواد، وبُعِدَتْ من البياض، فلا تزال كذلك إلى أن تصير سواداً»⁽³⁾

ثمّ امتدّت هذه المقولة إلى مؤلّفات الخالفين في بعض العصور الإسلاميّة التالية، أمثال ابن سينا على النحو الذي حكاها «بلينوس الحكيم» وإنّ لم يسمّوه.

ومن جملة ما ذكروه منها : «أنّ الأصل في الألوان عند المثبتين لها خمسة : البياض، والسود، والحمرة، والصّفرة، والخضرة. فهذه الخمسة ألوان بسيطة، والبواقي تحصل بالتركيب من هذه الخمسة بالمشاهدة. فإنّ الأجسام الملونة بالألوان الخمسة إذا سُحِقت سحقاً ناعماً، ثمّ خلط بعضها ببعض، فإنّه يظهر منها ألوان مختلفة بحسب مقادير المختلطات كما يشهد به الحسّ. فذلّ ذلك على أنّ سائر الألوان مركّبة منها».

وقد ذُكرت هذه الألوان الخمسة في القرآن الكريم في مناسباتها من الآي، وزيد عليها فيه لون سادس، وهو الزّرق.

وجاء فيه لفظ «لون» مفرداً مضافاً مرّتين في الآية 69 من سورة البقرة،

وجمعه «ألوان» مضافة إلى الضمائر (ألوانكم) في : (22، الروم) و(ألوانه) (13 و69، النحل) و(28، فاطر) و(21، الزمر). و(ألوانها) (67، فاطر) مرتين.

وفُسِّرَتْ كُلُّهَا بالحالات الصَّبْغِيَّة تكون عليها الأجسام ونحوها، وبأنَّ ما ذكر منها في الآيات : 13 النحل، و22 الروم، و27 و28 فاطر، و21 الزمر، يصحَّ أن يفهم منها الجنس، أو النوع، أو الصَّنَف من الأشياء.

وقد ذكر «البياض» في القرآن الكريم بخمس صيغ : (1) الأبيض : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ (187، البقرة)؛ (2) بيضاء : ﴿وَتَزَعُ يَدُهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ (108، الأعراف)، ومثلها (22، طه) و(33، الشعراء) و(13، النمل) و(32، القصص) و(46، الصافات)؛ (3) بيض : ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (27، فاطر)؛ (4) ابيضَّت : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فَبِئْسَ رَحْمَةً اللَّهُ﴾ (108، آل عمران)، و﴿ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (84، يوسف)؛ (5) تَبَيَّضُ : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ (106، آل عمران).

وذكر فيه «السَّوَادُ» بِسِتِّ صيغ : (1) الأسود : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ (187، البقرة)؛ (2) سُود : ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (27، فاطر)؛ (3) اسْوَدَّت : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وَجُوهُهُمْ﴾ (106، آل عمران)؛ (4) تَسْوَدُّ : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ (106، آل عمران)؛ (5) مُسْوَدًا : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (58، النحل)، واللفظ في (17، الزخرف)؛ (6) مُسْوَدَّة : ﴿تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ (60، الزمر).

وذكرت فيه «الحُمْرَة» بصيغة واحدة جمعاً لأحمر : ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (27، فاطر).

وذكرت «الصُّفْرَة» في ثلاث صيغ : (1) صفراء : ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاطِرِينَ﴾ (29، البقرة)؛ (2) صُفْرٌ : ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ﴾ (33، المرسلات)؛ (3) مُصْفَرًا : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِجَالًا فَأَرَاهُ مُصْفَرًا﴾ أي الثَّيَاب (51، الروم)، ﴿ثُمَّ يَهِيْجُ فَرَاهُ مُصْفَرًا﴾ (21، الزمر)، واللفظ في (20، الحديد).

وذكرت فيه «الخَضْرَاءُ» بأربع صيغ : (1) خَضِرًا : ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَبَاتٌ كُلُّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ (99، الأنعام)؛ (2) الأخضر : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنْ

الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا ﴿10، يس﴾؛ (3) خُضِرَ : ﴿وَسَبَّعُ سَبْعَاتٍ خُضِرَ وَأُخِرَ يَابَسَاتٍ﴾ (43، يوسف)، واللفظ في (46، يوسف) و(76، الرحمان) و(21، الإنسان)؛ وخُضِرَ : ﴿وَيَلْبِسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ (31، الكهف)؛ (4) مُخَضَّرَةٌ : ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخَضَّرَةً﴾ (63، الحج).

وذكرت فيه «الزَّرْقَةُ» في آية واحدة : ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾، أي : زُرُقَ الأبدان (102، طه).

و«الوردة» في آية واحدة : ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ (37، الرحمان). و«الوردة» مؤنث الورد، وهو لون أحمر يضرب إلى صفرة حسنة في كل شيء. قالوا : والورد يتلون، فيكون في الشتاء خلاف لونه في الصيف. واللون (الْوَرْدَةُ)، بضم الواو، مثل حُمرة وصفرة وخُضرة.

و«الدَّهَانُ» مرّة واحدة في آية سورة الرحمان هذه، والدَّهَانُ : الأديم الأحمر، أو آسم ما يُدَهَّن به كدهن الزيت وكلّ فُسْرٍ في الآية.

و«الدَّهْمَةُ» جاء منها فيه آسم الفاعل مشتقاً من الفعل «اذهَامٌ» مرّة واحدة : ﴿وَمِنْ ذَوْنِهِمَا جَبَّتَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُدْهَامَتَانِ﴾ (62 و 63 و 64، الرحمان). واذهَامُ الشيء أَذْهِمَامًا : أسودّ، واذهَامُ الزرع : علاه السّواد رِيًّا. وحديقة دَهْمَاءُ مُدْهَامَةٌ : خضراء تُضرب إلى السّواد من نعمتها وريّها. وكل نبت أخضر فتأمّ خِصْبِهِ وريّه أن يضرب إلى السّواد. والدَّهْمَةُ عند العرب : السّواد، وإثما قيل للجنة «مُدْهَامَةٌ» لشدة خضرتها.

وذكر فيه «الْيَحْمُومُ» في آية واحدة : ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظُلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ﴾ (43، الواقعة). واليحموم : الأسود من كل شيء، يفعل، من الأَحْمِ الأسود، جمعه يَحَامِيمُ. والْحُمَةُ دون الحُوَّة. وَشَفَّةٌ حَمَاءٌ، وَنَبْتُ يَحْمُومٍ : أَحْضَرُ رِيًّا أَسْوَدُ.

هذا ما جاء في القرآن الكريم من ذكر الألوان بصيغها المختلفة، مُوزَّعة في آية في مُناسباتها، موصوفاً بها بعض ظواهر الطبيعة، والإنسان، والحيوان، والنبات، والشجر، والجماد، والقياب. لا تتراد فيه لذواتها، ولا لحصر هذه الألوان وحدها، بل لأنها ألوان جهيّرة، قويّة الظهور والاستعلان في شواخص «الوجود»، تغترق رؤيتها الأبصار.

ومن الواضح أنّ ثَمّة في جملة ما خلق الله وَبَتْ من مُبدعات هنا وهناك، ألواناً أُخِرَ كثيرة، تمازجت بهذه الألوان الستّة، وانمازت بأشكال وصور شتى، وسُمّي كلّ لون منها باسم خاص.

ولقد وَهَمَ من قال (وهو الحسين بن عليّ التَّمَرِيّ البصريّ صاحب «كتاب المُلَمَّع في الألوان»):

«إن الله - عزَّ وجلَّ - خلق الألوان خمسة: بياضاً وسواداً وحُمْرةً وصُفْرةً وخُضرةً، فجعل منها أربعة في بني آدم: البياض والسَّواد والحُمْرة والصُّفْرة. فأعطى العرب والحِشَّة والزَّنج وشكلَهم عامَّة السَّواد... والخُضرة عند العرب السَّواد... وأعطى الفُرس والرُّوم والتُّبَط وشكلَهم عامَّة البياض والحُمْرة والصُّفْرة».

هكذا خصَّ هذه الألوان الخمسة بالخلق حصراً، على ما في جملة كلامه من قصور.

ثم استشعر أن ما قرَّره يوحى بأنَّ أشكال الألوان الأخرى، المشاهدة في جملة المخلوقات، ليست مما خلق الله تعالى، فاستدرك على نفسه يقول ذاكراً منها بعضاً قليلاً: «فإن قال قائل: فأين العُبرة والسُّمرة والزُّرقة والصُّحْمة والشُّقْرة، وأشكالُهنَّ من الألوان؟

قيل: هذه الألوان، ليست نواصع خوالص، وكلُّ يُرَدُّ إلى نوعه. فالعُبرة إلى البياض، والسُّمرة إلى السَّواد، والزُّرقة إلى الخُضرة، والصُّحْمة إلى الصُّفْرة، والشُّقْرة إلى الحُمْرة».

فأضاف خلقها إلى الله كذلك، ودفع الشبهة التي تَرَدُّ على كلامه الأول، فأصاب وأحسن وإن لم يفصح تمام الإفصاح، وأخطأ حين أصل وقرَّع، واتكأ في تعليل تأصيله وتفريعه على دعوى النِّصاعة الخالصة وجُوداً وعدماً، فأثبتها للألوان الخمسة، ورأى أنْ تَحَقُّقُها فيها يفرض أن تُعَدَّ «ألواناً أصليَّة»، ونفاها عن الألوان الأخرى، وجعل خُلُوقها منها سبباً في عدِّه إياها «ألواناً فرعيَّة»، وكلُّ واحد منها يُرَدُّ إلى فرعه من هذه الألوان الخمسة.

وحُجَّتُهُ هذه حُجَّةٌ واهيةٌ، مدفوعة بهذا الواقع المُشاهد في عوالم الطَّبيعة والمخلوقات من كلِّ جنس ونوع. فليست كلُّ هذه الألوان غُبراً، فتُعَدُّ ألواناً فرعيَّةً بحسب تصوُّره، بل إنَّ منها ما يضاهي هذه الألوان الخمسة نصاعةً خالصةً وإشراقاً.

وقد حَشَرَ بين ما سَمَّى من هذه الألوان «اللَّونَ الأزرقَ»، وهو ماهو صفاءً، وقرنه بـ «اللون الأغر»، فكأنه لم يبصر في حياته أديم السَّماء فوقه، وقد انبسط وامتدَّ إلى مدياتٍ بعيدة ينقلب عنها البصرُ خاسئاً وهو حسير، وهذه الزُّرقة تكسوه وتزيِّنه

مَجْلُوءَةٌ صَافِيَةٌ كَمَرَّاءَ الحَسَنَاءِ ! ثم هذه الشُّقْرَةُ التي ذكرها في هذا السِّياق فرعاً من الحمرة يُرَدُّ إليها، بسبب من توهُمِهِ خَلُوعُهَا من النَّصَاعَةِ الخالصة، وهي ماهي بين الألوان الزُّهْر ! تَقِفْ إلى جانب الحمرة نديدة لها، لافرعاً منها يُرَدُّ إليها. وقد حكى أهل اللغة فيها عدَّةَ أقوال، لا قولاً واحداً كما يشعر كلام هذا القائل. وممَّا قالوه : «الشُّقْرَةُ : لون الأشقر، وهي في الإنسان حمرة صافية، وبَشَرَتُهُ مائلة إلى البياض»، وقالوا في الشُّقْرِ، بكسر القاف : إنه شقائق النُعمان، وهي حمراء صافية اللون تخالط حمرةًها غبرةً.

والقول بتقسيم الألوان قسمين، قديمٌ مُعْرَق في الدِّراسات اللُّونية، قال به حكماء اليونان من قبل كما أسلفْتُ حكايته عن كتاب «بليَنوس». لكنَّهم لم يَتَكَوَّنُوا في الاحتجاج له على هذا السَّبَب، سبب النَّصَاعَةِ الخالصة وجوداً وعدماً.

لقد قالوا : «الألوان الخمسة المذكورة بسيطة، والبواقي تحصل بالتركيب»، وعلَّلوا ذلك بأنَّ «هذه الأجسام الملونة الخمسة إذا سُحِقت سحقاً ناعماً، ثم خُطِط بعضها ببعض، فإنَّه يظهر منها ألوان مختلفة بحسب مقادير المختلطات، كما يشهد الحِسْ». فدلَّ ذلك على أن سائر الألوان مركَّب بعضها من بعض.

وهذا الَّذي قرره اليونانيون، باطل من وجه، وحق من وجه آخر. باطل بنسبته إلى الله - عزَّ وجلَّ - فإن ما ذرأ من هذه الألوان جمعاء إنَّما ذرأ كُلُّ لون منها مستقلاً بنوعه وصفته وخصوصيته ابتداءً وإبداعاً، ولم يحدِّثه بتركيب بعضها من بعض، بأنَّ يعتمد إلى البياض والحمرة مثلاً، فيأخذ من كُلِّ منهما مقداراً كثيراً أو قليلاً، ليُولِّد من خلط بعضهما ببعض اللون الذي يريد خلقه، وما أكثر ما خلق وأبدع جلَّ جلاله من هذه الألوان المختلفة التي زان بها الطَّبيعة والمخلوقات من كُلِّ جنس ونوع !

فلا جَرَمَ أَنَّ مثل هذا التَّصوُّر في حق الله باطل، لأنَّه ممتنع عقلاً بداهةً و يقيناً.

وهو حق بنسبته إلى البشر من الكيميائيين وأصحاب الصِّناعات فيما يُضاهون به ما خلق الله ابتداءً وإبداعاً من هذه الألوان كافَّةً على اختلاف أشكالها، فيعمدون إلى تركيب بعضها من بعض، يأخذون من كل لون المقادير التي يحقق خلطها اللون المُحاكي الَّذي يريدونه صفةً اللون الطَّبيعي من صنع الله. وهذا حقٌّ، وهو مشاهد بالحسِّ.

وَيَسْتَبَيِّعُ هذا القول في حاقِّ التكوين الآلهي لهذه الألوان المختلفة في أصل الفطرة، قول آخر في جانب آخَر من جوانبها لا مناص من الوقوف عنده وتمحيص القول فيه وتحريره.

وهو الجانب اللغوي فيها، الذي اتخذ بعض اللغويين من استعمالاته في كلام العرب وسيلة إلى التأصيل والتفريع للألوان.

ذلك أن العرب قد ألحقوا بكل لون من هذه الألوان الخمسة ألفاظاً كثيرة مختلفة..

فقالوا : أبيضُ يَفْقُ، وأبيضُ لَهَقَ ولهاق، وأبيضُ وابص ووباص، وأبيضُ دُلِمَص ودُلَامِص، وأبيضُ بَرَّاق، وأبيضُ خالص وناصح، وأبيضُ ناصح، وأبيضُ صَرَح وصراح، وأبيضُ حُرّ، وأبيضُ هِجان...

ثم جعلوا لكل أبيض من مخلوقات الله، إنسانٍ أو حيوانٍ أو نباتٍ أو جمادٍ... أسماءً خاصاً سَمَّوه به.

وقالوا : أسودُ حالِك، وأسودُ حانِك، وأسودُ مُحَلَنِكِك، وأسودُ مُحَلُولِك، وأسودُ مُسَحَنِكِك، وأسودُ حَلَكُوك، وأسودُ غَزِييب، وأسودُ حَلُوب، وأسودُ غِيِب، وأسودُ غِيَهَم، وأسودُ سَحَكُوك، وأسودُ فاحم، وأسودُ غُداف وُغْدافِي، وأسودُ دَجُوجِي ودُجَاجِي، وأسودُ غُرَائي، وأسودُ مُذْهَام، وأسودُ مُذَلِهَم، وأسودُ يَحْمُوم...

وقالوا : أحمرُ قانِيء، وأحمرُ غَضَب، وأحمرُ عاتِك، وأحمرُ وَرْد، وأحمرُ فاقِع وفُقاعِي (ويقالان في الأصفر)، وأحمرُ باجِرِي وبَحْرانِي، وأحمرُ كَرَك، وأحمرُ قاتَم، وأحمرُ ناكع، وأحمرُ لِضَرِيح، وأحمرُ جِرْيَال، وأحمرُ عَنَدَم، وأحمرُ سِلْعُد...

وقالوا : أصفر فاقِع وفُقاعِي، وأصفر وارس.

وقالوا : أخضرُ ناضر، وأخضرُ باقِل، وأخضرُ حانِيء، وأخضرُ زاهر، وأخضرُ مَذهام.

ثم جعلوا لكل لون من هذه الألوان في مخلوقات الله اسماً خاصاً سَمَّوه به، كالذي ذكرته في اللون الأبيض.

فما أراد العرب من هذه الألفاظ التي ألحقوها بالألوان الخمسة تخصيصاً ؟ وما كان من رأي علماء اللغة في هذه الملحقات لهذه الألوان الخمسة ؟

أهل اللغة بين فريق قليل العدد ذهب إلى أن هذه الألفاظ التوابع «مؤكدات»، وفريق يقول إنَّهنَّ ألفاظٌ وصفيةٌ يُرادُّ بهنَّ تسمية درجات الألوان، وهنَّ على حالات شتى مختلفات، ولا بدَّ من تخصيص كل حالة منهنَّ بأسم خاصَّ تتعيَّن به صفتها ونوعها وخصوصيتها... وهو الحقُّ كما سأبسُط القول فيه.

والقول بأن هذه الألفاظ التوابع «مؤكدات»، استعلن في كتاب «الملمع في

الألوان»، وصاحبه الحسين بن عليّ النَمَرِيّ البصريّ (المتوفى سنة 385 هـ، أو 388 هـ) قد أفرده خصيصاً لهذا المعنى، وهو أول كتاب في بابته هذه وصل إلينا، لا أعرف له سلفاً سابقاً.

قال في مطلعته :

«العربُ عَمَدَت إلى نواصع الألوان، فَ (أَكْذَبُهَا)، فقالت : أبيضُ يَقْقُ، وأَسْوَدُ حَالِكٌ، وأَحْمَرُ قَانِيٌّ، وَأَصْفَرُ فَاقِعٌ، وَأَخْضَرُ نَاضِرٌ».

ثمَّ شَرَعَ يَفْصِّلُ القول في نوعٍ نوعٍ، ويذكر ما سَمِعَهُ فيه من الألفاظ وما زَعَمَهُ من نوعها ألفاظاً «مُوكَّدَاتٍ»، تراوَحَ أَعْدَادُهُ بين بضعة أَلْفَاظٍ في بعض الألوان، وَزَيْدٍ على عشرين لفظاً في بعض ثَانٍ، وما بين هذين في ثالث.

وقد أَسْلَفْتُ منها الكثير، عنه وعن غيره، في تفنيدي اتِّخَاذَهُ «النَّصَاعَةَ الْخَالِصَةَ» - وجوداً وعدماً أو شبهَ عَدَمٍ - سبباً في تقسيمه الألوان قسمين : «أَلْوَانٌ أَصْلِيَّةٌ» و«أَلْوَانٌ فَرَعِيَّةٌ».

وظهر قوله هذا بنصّه أو أشبه به في كتاب «الخيل مطلع اليُمن والإقبال في انتقاء كتاب الاحتفال» صنعة عبد الله بن محمد بن جُزَيّ الكلبيّ الغرناطيّ، وألفاظُهُ في «باب الألوان» منه هي أَلْفَاظُ «النَمَرِيّ» في «المُلَمَّع»، مع شيء يسير من الزيادة يلاحظ في ذكره أسماء جديدة لبعض الألوان جاءت في كلام المتأخّرين، ولم تُؤثّر عن فصحاء العرب السّالفين.

ونظم الفقيه عليّ بن أبي العزّ الحنفيّ الدمشقيّ أحد شُراح كتاب «الهداية» المشهور في الفقه، المتوفى سنة 792 هـ، هذه الألفاظ في أَرْجُوزَةٍ قصيرة، مُسَمَّيَةً لَهُنَّ «مُوكَّدَاتٍ»، وقال : إِنَّهُ نَقَلَهُنَّ من «المُحَكَّم»، وهو لابن سيده الأندلسيّ، و«أَسَاسُ الْبَلَاغَةِ» و«الكَشَاف» وهما لِجَارِ اللَّهِ محمود الزَّمْخَشَرِيّ.

واحتفل شيخنا العلامة السيّد الشريف محمود شُكْرِيّ الألوّسيّ، يرحمه الله، بهذه «الأَرْجُوزَةِ»، فشرح ألفاظها، وأوسعها تبياناً وتوثيقاً بالشواهد، وقال في مطلع الشرح : إنها «في تأكيد الألوان [ب] حَسَبَ ما نطق به العرباء في قديم الزّمان».

وعبارة «تأكيد الألوان» هذه، هي عبارة صاحب الأَرْجُوزَةِ الَّذِي تابع من سبقوه في هذه التسمية، وهم غير ابن سيده والزَّمْخَشَرِيّ اللذين قال إنه اقتبس ألفاظه هذه من كتبهما المذكورة، فَإِنَّهُمَا لم يَقُولَا بهذا «التأكيد»، وإِنَّمَا قالَا بضدّه كما سَأَبَسْطُهُ.

ومؤدّى تسمية هذه الألفاظ «مؤكدات» أنّهنّ «مترادفات» يُعبّر عن مدلول واحد في لونٍ لَوْنٍ.

فهل يستقيم هذا القول مع واقع أشكال الحالات في كلّ لون تقارباً أو تباعداً بمشاهدة الحسّ ؟

وهل من المعقول والمقبول أن تترادف مجموعات لفظيّة لمدلول واحد بعينه، ولا تكون لمدلولات متعدّدة تُعرّف بها الحالات، فتميّز بعضها عن بعض آخر ؟

القول بـ «التأكيد» هاهنا، يستلزم القول بـ «الترادف»، ولا وجود في اللغة لترادف عدد كبير من الألفاظ بمعنى واحد بعينه تتعاقب وتُساق، ويُراد بها تأكيد لفظ مفرد بعينه، لأنّه فضول. فما يُظنّ من اللفظ مُرادفاً إنّما يعبر عن معنى دقيق ليس في غيره، لا جَرَم.

فلا مَنَاصَ، إذن، من الاعتراف بهذا الواقع، ومن القول بأنّ كلّ لفظ تابع في هذه الألوان إنّما هو اسم خاصّ يُعرّف حالةً بعينها في لونٍ لَوْنٍ، ليس غير. هذا من حيث منطوق العقل فيما يجب أن تكون عليه حال اللغات، لا اللغة العربية وحدها.

وتعضده تفاسير هذه الألفاظ وما يُذكر من تنوّع دلالاتهنّ، وقد أذكيّت طرّفي تنبّعاً لمن في المعاجم لفظةً لفظةً، وقد تناثرن فيها، أتعرف حصوصياتهنّ وفروق معانيهنّ، وهل قالت فيهنّ إنّهنّ «مؤكدات»، وجهدتُ جهدي في ذلك، فلم أقع فيها - بعد طول تقليب ومُعاوذة نظري وفحص - إلّا على لفظتين اثنتين ممّا أسلفتُ ذكره وممّا لم أذكره، قالت المعاجم في كل منهما : إنّها «توكيد»، ورُبّما زاغ بصري فنّد عني غيرهما فيها ؛ والتمستُ فيها السبب في تخصيصهما بهذا التعت دون البواقي، وكلّهنّ نسقٌ واحد، فلم أجدها تذكره.

اللفظة الأولى «حانيء»، التي تلحق بب «الأخضر» في جملة ما يلحق به من أَلْفَافٍ أُخَرَ.

جاء في «القاموس المحيط» : «حَنَأُ المكان، كَمَنَعَ : اخضُرَّ، والتَّفَّ نَبْتُه. وأخضُرُ حانيء : تأكيد».

وأباه شارحُه «الزبيدي»، ففسره مباشرةً بقوله : «أي : شديد الخضرة» ذاهباً إلى الوصفية التي تعيّن حالةً بعينها من حالات مختلفة ومتنوّعة في اللون.

وجاء في «لسان العرب» : «حَنَأَتِ الأرضُ، تَحْنَأُ : اخضُرَّتْ، والتَّفَّ نَبْتُها.

وَأَخْضَرُ نَاضِرٌ، وَبَاقِلٌ، وَحَانِيٌّ : شَدِيدُ الْخُضْرَةِ»، فلم يَقُلْ «تَأْكِيدٌ» كما قال «القاموس المحيط». وظاهر هذا النَّصِّ فيه أَنَّ هذه الألفاظ الثلاثة لمعنى واحد وحالة لونية واحدة، أي هُنَّ أَلْفَاظٌ مترادفات، وليس بدقيق ولا بصحيح... بآية ما جاء فيه، في (ن، ض، ر) من قوله، ناقلاً عن أبي عُبَيْدٍ صاحب «المُصَنَّف» من (معاجم الموضوعات) : «أَخْضَرُ نَاضِرٌ : معناه ناعمٌ» وفي (ب، ق، ل) لم يَقُلْ : «أَخْضَرُ بَاقِلٌ : شَدِيدُ الْخُضْرَةِ»، وإنما قال : «[قال] الْأَصْمَعِيُّ : أَبَقِلَ الْمَكَانُ، فَهُوَ بَاقِلٌ، مِنْ نَبَاتِ الْبَقْلِ»، ثم نقل قول الجَوْهَرِيِّ في «الصَّحاح» : «أَبَقَلَ الرَّمْتُ، إِذَا أَدْبَى، وَظَهَرَتْ خُضْرَةُ وَرْقِهِ، فَهُوَ بَاقِلٌ، وَلَمْ يَقُولُوا : مُبَقَّلٌ». ومثله عن ابنِ سَيِّدَةَ الْأَنْدَلُسِيِّ، قال : «وَبَقَلَ الرَّمْتُ، يَقِلُّ، بِقَلًّا وَبُقُولًا، وَأَبَقَلَ، فَهَلْ بَاقِلٌ، عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ، كِلَاهُمَا فِي أَوَّلِ مَا يَنْبُتُ قَبْلَ أَنْ يَخْضُرَ». وَشَتَّانَ هَذَا كُلُّهُ وَقَوْلُهُ فِي (ح، ن، أ).

اللفظة الثانية «غَرِيبٌ». جاء في «لسان العرب» : «وَأَسْوَدُ غُرَابِيٍّ وَغَرِيبٌ : شَدِيدُ السَّوَادِ. وَإِذَا قُلْتُ : غُرَابِيٌّ سَوْدٌ، تَجْعَلُ «السَّوْدَ» بَدَلًا مِنْ «غُرَابِيٍّ» ؛ لِأَنَّ تَوْكِيدَ الْأَلْوَانِ لَا يَتَقَدَّمُ». وزاد قوله : «وفي الحديث : إِنَّ اللَّهَ يُغْضِ الشَّيْخَ الْغَرِيبَ» هو الشَّدِيدُ السَّوَادِ، وَجَمْعُهُ غُرَابِيٌّ، أَرَادَ : الَّذِي لَا يَشِيبُ، وَقِيلَ : أَرَادَ الَّذِي يُسَوَّدُ شَبِيهًا». وتفسير الحديث هذا، في «النهاية في غريب الحديث» أحد أمهات المعاجم الخمسة التي جمع بينها آبنُ منظور، وألَّفَ منها كتابه «لسان العرب».

وعلى طِراقه جاء في «القاموس المحيط» قوله، وهو : «وَأَسْوَدُ غَرِيبٌ : حَالِكٌ. وَأَمَّا «غُرَابِيٌّ سَوْدٌ»، فَـ «السَّوْدُ» بَدَلٌ ؛ لِأَنَّ تَوْكِيدَ الْأَلْوَانِ لَا يَتَقَدَّمُ».

وأباه شارحه الزَّيْدِيُّ كما أُنِيَ أَنْ تَكُونَ (حَانِيٌّ) تَأْكِيدًا، وَعَقَّبَ عَلَيْهِ يَقُولُ : «وهو عبارة ابن منظور. قال شيخنا [وهو الطَّبِيبُ الْفَاسِيُّ] نَقْلًا عَنْ (السُّهَيْلِيِّ) [وهو مؤلَّف «الرُّوضِ الْأَنْفِ» شرح السَّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ لابنِ هِشَامٍ] : «وِظَاهَرُهُ أَنَّ تَوْكِيدَ غَيْرِ الْأَلْوَانِ يَتَقَدَّمُ، وَلَا قَائِلٌ بِهِ مِنْ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ، وَقَالَ الْهَرَوِيُّ [صاحبُ الْغَرِيِّينَ] : «أَيُّ : وَمِنْ الْجِبَالِ غُرَابِيٌّ سَوْدٌ، وَهِيَ الْجَدُّ ذَوَاتِ الصُّخُورِ السَّوْدِ». انتهى.

وهذا الكلام بجملته، يحتاج إلى توضيح.

فإنَّ عبارة «غُرَابِيٌّ سَوْدٌ»، التي مَثَّلَ بِهَا «لسان العرب» و«القاموس المحيط»، إِنَّمَا هِيَ قُرْآنِيَّةٌ، ذَكَرَتْ فِي سُورَةِ غَافِرٍ (27)، وَهِيَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغُرَابِيٌّ سَوْدٌ» الْآيَةِ. وَقَدْ أَجْرِيَا الْكَلَامَ عَلَيْهَا مَفْصُولَةً عَنْ

الآية الكريمة وموقعها في السياق، وجاء «لسان العرب» بإيرادها في صورة الافتراض : «وإذا قلت : غريبٌ سودٌ...»، أي : خلافاً لموردها واستعمالها في الآية. واللغة لا تفترض، بل تُحكي ويُراعى سماعها ومواقعها في الاستعمال. وقد أخلاً بذلك، فجاء كلامهما، ولاسيما كلام «لسان العرب» قاصراً وغير مُسَدَّد. وأدى الزبيدي في تعليقه بعض واجب التحقيق، فذكر جانباً مما يقال في المسألة، وفاته - وهو ينقل عن الهروي تأويله الوجيز - أن يذكر الآية الكريمة، يُفهم قوله : «أي : ومن الجبال غريبٌ سودٌ...»، إذ لم يرِدْ لهذه الجبال ذكرٌ في جملة ما حكاها.

وعبارة : «وَغَرِيبٌ سُدٌّ» في الآية الكريمة، قد جاءت معطوفة على ما قبلها، وهو قوله تعالى : «وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ...»، فحمل أهل التفسير هذا العطف على وجهين : أن يكون على «بيض»، أو على «جُدَد». و«الجُدَد» : الخِطَطُ والطَّرِيقُ، واجدُها : جُدَّة، ومن ذلك : جادَّةُ الطريق، وطريق مجدودٌ : أي مسلوكة. و«الغريب» : حكى الزمخشري جار الله في «الكشاف» عن عكرمة، رضي الله عنه : أنها الجبال الطوال السود. وهو معنى آخر للغربي والغريب.

فأما العطف على «بيض»، فإنه يحصر الغرض في اللونية. وأما العطف على «جُدَد»، فينصرف إلى الجبال، وأن منها جبلاً ذوات جُدَد، أي : خطط وطرائق بيضٌ وحُمْرٌ مختلف ألوانها، وجبالاً طوالاً سوداً. وهذا العطف الثاني يسقط دعوى «التأكيد» والبديلية فيها.

وحكى الزمخشري وجهاً آخر في المسألة، لكنه ساقه على وجه التشكيك فيما يقال من هذا التأكيد في «غريب سود». قال : «فإن قلت : الغريب تأكيد للأسود، يقال : أسود غريب، وأسود حلكوك - وهو الذي أبعد في السواد وأغرب فيه ومنه الغراب...» - قلت : وجهه أن يضم المؤكّد قبله، ويكون الذي بعده تفسيراً لما أضمر...»

إلى آخر ما قال. ويعني منه أمران : تشكيكه في مزعم «التأكيد» في هذه التوابع، وتصريحه بالتفريق والتمايز بين دالّتي «أسود غريب» و«أسود حلكوك»، إذ وصّف «الحلكوك» بالأبعد في السواد والأغرب فيه من «الغريب»، فأبطل به زعم (التأكيد). وما قاله، لا يقتصر حكمه على هاتين اللفظتين في السواد وحده، بل يمتد ويشمل توابع الألوان جمعاء، ولا ريب.

واشتدّ ابن سيده الأندلسي في إنكاره تسمية ذلك تأكيداً، وذهب يلتمس له

تأويلاً يحده، فقال في «المخصّص» (السفر الثاني 105 - 106) : «[قال] أبو عبيد : أسودٌ غريبٌ. قال (عليّ) - [يعني ابن سيده نفسه] - فأما قوله تعالى : ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ وَغَرَابِيبُ سُودٍ﴾ فأتبع «الغرابيب» بـ «السود» [بياض مقدار نحو سبعة ألفاظ]، فلا أعلم لأحد فيه مزيداً على أن سماه (تأكيداً). والتأكيد ساذجاً غير مزيد عليه معنى، لا يُقرّ عين الفهم بالنظر إليه، بل هو فرع داني الجنة، وشرطٌ يدرّكه طالباً بالتؤدة والأناة. فنحن نلتبس له طبيعة ثمّده، ومعنى يجلو من صدّته فيحده، إلّا أن تدفع داعية الضرورة إلى أن يكون بخلاف هذه الصورة. فأما، ونحن نجد عن ذلك متّحداً عريضاً ومُنفسحاً أريضاً، فإنا لا نفرغه من فائدة ثمرته وتسوّغه. وهذا التأكيد، الذي في هذه الآية، ممّا يقبل التأويل، ويسعّ التعليل، فلا تقبلنه ساذجاً، ولا تستعملنه خارجاً».

وذكر تأويله وتعليله : «إنّ في هذه الآية ثلاثة أنواع من اللون محمولة بالاشتقاق على موضوعاتها، وهو الأبيض والأحمر والأسود. وهذه الأنواع الثلاثة، في هذه اللسان العربية، أسماء مستعملة قريبة، والأخرى - بالإضافة إليها - وحشية غريبة، لا تدور في اللغة مدارها، ولا تستمرّ استمرارها، ألا ترى أنّ قولنا : أبيض وأحمر وأسود، من اللفظ المشهور، وقد تداولته ألسنة الجمهور، وقولنا في الأبيض ناصع، وفي الأحمر قُمْدٌ، وفي الأسود : غريب، من الأفراد التي رُفعت عن الابتدال، وأودعت صواناً في قلة الاستعمال ؟ مع أنّك لا تجدها في غالب الأمر إلّا تابعة للألفاظ المشهورة. يقولون : أبيض ناصع، وأحمر قُمْدٌ، وأسود غريب، وإن كان قد يستعمل مفرداً، كقوله : «بالحقّ الذي هو ناصع»، و : «يغصّر منها ملاحٍ وغريب»، و : «يقمّد كسائل الجريال». لكنني إنّما قلت بالأغلب والأذهب، فلما ذكر تعالى هذين النوعين المُشتَقَّين بالاسمين المشهورين : الأبيض والأحمر، وشفعهما باللفظ الغريب، الذي لا تكاد تراه إلّا تابعاً، وهو «الغريب» - قرّنه بالإسم المشهور، الذي هو «الأسود»، وصار بمنزلة صفة».

تفنيذ ثالث لزعم «التأكيد» هذا، يُعزّز التّفنيدَين السّابِقَين، جاء فيه ابن سيده بالتأويل الطّريف، والاحتجاج له بالتعليل السّديد المقبول، لينتهي إلى الحكم على هذه الألفاظ التي توجد في غالب الأمر توابع للألوان المشهورة، بأنّهنّ «أوصاف»، ولسنّ «تأكيدات»، وصَفَ فصحاء العرب بكل لفظةٍ منهنّ درجةً مُعيّنة، تختلف عن غيرها في لونٍ لونٍ وفرعٍ فرعٍ، وتقضي بأن تُسمّى باسمٍ خاصٍّ لزاماً، يُميّزها ويفصل بين صفتها وصفات غيرها ممّا يقرب منها أو يبعد قليلاً أو كثيراً، وفي «الفصحى» من الوفّر ما أقتى وأمدّ وأغنى !

وقد أَلَمَّ أبْنُ سَيِّدِهِ في فصل الألوان العامة في كتابه هذا (2/ 103 - 112) بقدر جليل من أسمائها، حكاه عن أئمة اللغة (الخليل، وسيبويه والنظر وأبي عبيد والأصمعي وأبي عبيدة وابن الأعرابي وابن دُرَيْد وابن السكيت، وغيرهم)، وعزا كل قول إلى قائله كما وجده - ومن ما عرّفوها وفسّروها، ومنها ما أغفلوا تعريفها وتفسيرها - فسرد ما وجده كذلك سرداً متلاحقاً، معطوفة بعضها على بعض، وكل لفظ ممّا عرّفوه وفسّروه يصف حالة لونية تميّز درجته في لون لونٍ ونوع نوعٍ.

وما عُدّ من هذه الألفاظ توابع للألوان الخمسة المشهورة، عدّها «الثعالي» مراتب لدرجات اللون، بعضها يلي بعضاً.

فقد عقد في كتاب «فقه اللغة وأسرار العربية» باباً سمّاه «في ضروب من الألوان والآثار»⁽⁵⁾، فقال لأوّل ما بدأ الكلام فيه : «فصل في ترتيب البياض : أبيض، ثم يَقق، ثم لهق، ثم واضح، ثم ناصع، ثم هجان وخالص».

وتابع هذا الفصل عشرة فصول ذكر فيها ضروباً من تقسيم البياض في الإنسان والحيوان والأشياء المختلفة، مختاراً أشهر الألفاظ وأسهلها. وكذلك صنع في الألوان الأخرى.

ومن فصول «لون البياض» فصل في «تفصيل البياض» قال فيه : «إذا كان الرجل أبيض بياضاً لا يخالطه شيء من الحمرة، وليس بنير، ولكنه كلون الجص، فهو «أمهق». فإذا كان أبيض بياضاً محموداً يخالطه أدنى صُفرة كلون القمر والدّر، فهو «أزهر» ؛ وفي حديث «أنس» في صفة النبي ﷺ : «كان أزهر، ولم يكن أمهق». وإن علته - أو غيره من ذوات الأربع - حمرة يسيرة، فهو «أقهب» و«أقهذ». فإن علته غيرة، فهو «أعفر» و«أغثر».

ثم جاء إلى لون السّود، فجعله فصلاً كذلك، وبدأه بمثل مابدأ به «لون البياض»، من القول بالترتيب، قال : «فصل في ترتيب السّود على الترتيب والقياس والتقريب : أسود، وأصحّم، ثم جَوْنٌ وفَاحِمٌ، ثم حَالِكٌ وحَانِكٌ، ثم حُلُكُوْكٌ وسُحُكُوْكٌ، ثم خُذَارِيٌّ ودُجُوْجِيٌّ، ثم غَرِيْبٌ وغُدَافِيٌّ».

وتحدّث في فصل آخر عن ترتيب سواد الإنسان، فقال : «إذا علاه أدنى سواد، فهو «أسمر». فإن زاد سواده مع صُفرة تعلوه، فهو «أصحّم». فإن زاد سواده على السُمرة، فهو «آدم». فإن زاد على ذلك، فهو «أسحّم». فإن اشتدّ سواده فهو «أذلم».

وعقد في هذا الباب فصلاً سادساً في «لواحق السّود» كما سمّاه، أورد فيه تسعة

ألفاظ من جنس : «أسود أسحَم، وجون، وفاحم...» اللواتي ذكرهنَّ في «فصل ترتيب السواد»، وهن : «أخطَب، أغْبَش، أغْبَر، قَاتِم، أصْدء، أخَو، أكْهَب، أَرْبَد، أغْثَر، أذْغَم، أضْمى، أوزَق...»، هكذا ساقهنَّ نسقاً عوارِي من العطف، والتعريف وِذكر الترتيب.

ثمَّ جاء في الكتاب - بعد كلام مقتضب جدًّا في «لون الحُمْرة»، وإشارة واحدة إلى «لون الخُضرة» - فصلٌ عنوانه : «فصل في الإشباع والتأكيد»، ضمَّن ما يأتي : «أسودُ حَالِك، أبيضُ يَقْق، أصْفَرُ فَاقِع، أخْضَرُ نَاضِر، أحْمَرُ قَانِيء». وهو غريبٌ في سياقه، تنتقض به جملةٌ ماجاء في فصول الباب أصلاً وفروعاً. وأنا أدفع عن أبي منصور الثعالبي - وهو مَنْ هو علماً وفطنة - أن يقع في مثل هذا التخلیط، وما أراه إلاّ كلاماً علَّقه معلّق في الحاشية، فأقحمه في صلب الكتاب ناسخٌ غرّ لا يعي فساد مايصنع.

وقبول الثعالبي بـ «الترتيب» في هذه الألفاظ اللونية يطابق واقع اللغة في إيقاعها على كل مدلول لفظاً يدلّ عليه ويُخصّصه. وأراه استفادة من إيراد رُواة اللغة الأولين هذه الألفاظ منسوقةً بالعطف في بعض الأحيان، كما في قولهم في «لون البياض» مثلاً : «أسودٌ وأسحَم، ثمَّ جَوْنٌ وفاحِم، ثمَّ حَالِكٌ وحَانِكٌ...». لكنهم لم ينطقوه، واستنبطه الثعالبي من كلامهم فنطقه، وأجرى استعماله في الباب كلّ، وفي أمثاله ممّا جرى على وتيرته من العطف في أبواب كتابه هذا كافّة. وما لم يُجره رُواة اللغة الأولون على هذه الوتيرة من أجناسها وأنواعها، كالألفاظ التي أوردتها في «فصل لواحق السواد» أغفلاً من الشُّروح ومن العطف تقع خارج «دائرة الترتيب»، لكنها لا تفقد معانيها ودلالاتها الفرعية في اللون، وهي مبسوبة التعريفات في معاجم اللغة، يستطيع أن يستعمل منها مَنْ يشاء مايتلاءم مع مُبتغاه، أو يطلبه سياق كلامه ومقتضاه، وليس «الترتيب» فيها ضربةٌ لازِب.

هذا هو مقطع الحق، وعليه يقيني، والله من وراء القصد.

الهوامش

- (1) أي : نَعَم
- (2) السماء : المطر. (منه قول الشاعر :
إذا نزل السماء بأرض قومٍ رعيناه وإن كانوا غضابا
- (3) حقق هذا الكتاب «أورسولا واير»، وطبع في حَلَب 1979 م.
- (4) «كتاب الحيوان» للجاحظ، ج 5، ص : 59، ط. عبد السلام محمد هارون.
- (5) «فقه اللغة وأسرار العربية»، (50 - 57)، ط. مصر، 1318 هـ.